

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٥ - سُورَةُ الْبُرُوجِ

مكية . وآيها اثنتان وعشرون . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ)
 - [٢] (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ)
 - [٣] (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ)
 - [٤] (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ)
 - [٥] (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ)
 - [٦] (إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ)
 - [٧] (وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)
 - [٨] (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)
 - [٩] (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)
- « وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ » أى الكواكب والنجوم. شبهت بالبروج ، وهى القصور، لعلوها . أو البروج منازل عالية فى السماء .
- قال ابن جرير ^(١) : وهى اثنا عشر برجاً . فمسير القمر فى كل برج منها يومان وثلاث فذلك ثمانية وعشرون منزلاً . ثم يستمر ليلتين . ومسير الشمس فى كل برج منها شهر . وأصل معنى البروج - كما قال الشهاب - الأمر الظاهر من التبرج . ثم صار حقيقة فى العرف للقصور العالية . لأنها ظاهرة للناظرين . ويقال لما ارتفع من سور المدينة (برج) أيضا .
- (١) انظر الصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فشبهه - على هذا - الفلك بسور المدينة وأثبت له البروج « وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ » أى الذى وعد فيه العباد لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة « وَشَاهِدٍ » وهو كل ماله حس يشهد به « وَمَشْهُودٍ » وهو كل مُحَسَّنٍ يشهد بالحس . فيدخل فيه العوالم المشهودة كلها . وتخصيصُ بعض المفسرين بعضاً مما يتناولوه لفظهما ، لعله لأنه الأهم . أو الأولى أو الأعراف والأظهر ، لقريئة عنده . وإلا فاللفظ على عمومه ، حتى يقوم برهان على تخصيصه .

« قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ » أى : قتلهم الله وأهلكهم وانتقم منهم . على أن الجملة خبرية هى جواب القسم . أو دليل جوابه إن كانت دعائية . والتقدير : لعلون كما ابتلى من قبلكم ، ولينتقم من فتنكم كما انتقم من الذين ألقوا المؤمنين فى الأخدود .

قال الزخشرى : وذلك أن السورة وردت فى تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان ، وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم ، حتى يأنسوا بهم وبصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ، ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار ، ملمعون أحقاء بأن يقال فيهم (قتل قريش) كما قيل (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ) والأخدود : الحفرة فى الأرض مستطيلة . وقوله تعالى « النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ » بدل من (الأخدود) و (الوقود) بالفتح الحطب الجزل الموقد به وأما (الوقود) بالضم فهو الإيقاد « إِذْ هُمْ عَلَيْهَا » أى على حافات أخدودها « قُعُودٌ » أى قاعدون يتشفون من المؤمنين « وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ » أى حضور يشاهدون احتراق الأجساد الحية ، وما تفعل بها النيران . لا يرقون لهم لغاية قسوة قلوبهم « وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ » أى : وما أنكروا منهم ، ولا كان لهم ذنب ، إلا الإيمان بالله وحده .

قال الراغب : نكمت من الشيء ونكمته إذا أنكرته ؛ إما باللسان وإما بالعقوبة ، ومنه الانتقام « الْمُرِيزِ » أى الغالب على أعدائه بالقهر والانتقام « الْحَمِيدِ » أى الحمود على إنعامه

وإحسانه « الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » أى على كل شيء من أفاعيل هؤلاء الفجرة ، أصحاب الأخدود وغيرهم ، شاهدٌ شهوداً لا يخفى عليه منه مثقال ذرة ، وهو مجازيهم عليه . وفي توصيفه تعالى بما ذكر من النعمت الحسنی ، إشعار بمناط إيمانهم . فإن كونه تعالى قاهراً ومنعماً ، له ذلك الملك الباهر . وهو عليم بأفعال عبیده ، مما يوجب أن يخشاه من عرف المصائر ، وفي الآية نوع من البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم . وهو معروف في كتب المعاني .

تنبيه :

روى ابن جرير^(١) عن ابن عباس في أصحاب الأخدود قال : هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا أخدوداً في الأرض ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء ، فمرضوا عليها . وهكذا قال الضحاك : هم من بنى إسرائيل أخذوا رجالاً ونساء فخدّوا لهم أخدوداً ، ثم أوقدوا فيه النيران ، فأقاموا المؤمنين عليها . فقالوا : تكفرون أو نقذفكم في النار .

وقال مجاهد : كان الأخدود شقوقاً بنجران . كانوا يعذبون فيها الناس - وتفصيل النبأ - على مافى كتاب (الكنز الثمين) - إن دعوة المسيح عليه السلام الأولى العربيّة عن شوائب الإلحاد ، لما دخلت بلاد اليمن وآمن كثير من أهلها ، كان في مقدمة تلك البلاد بلدة نجران . وكان أقام عليها ملك الحبشة أميراً من قبله نصرانياً مثله . وكان بها راهب كبير له الكلمة النافذة والأمر المطاع . ثم إن اليهود الذين كانوا في تلك البلاد تآمروا على طرح نير السلطة المسيحية من اليمن ، والإيقاع بمن تقصر ، بغضاً في المسيحية وكرهه لسلطانٍ مسيحيٍّ يملكهم . فأقاموا رجالاً يهودياً منهم عند موت ذلك السلطان أوقته . فأشهر ذلك اليهودي نفسه ملكاً على بلاد سبأ . وجاء لمحاربة مدينة نجران ، واستولى عليها بالتغلب والقوة

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

والخيانة . ولما دخلها قتل عدداً عظيماً من سكانها رجالاً ونساء . كانت عدتهم - فيما يقال - ثلاثمائة وأربعين شهيداً . وأتى بذلك الراهب محمولا يحف به الجنود . وكان هراً لا يقوى على المشي . فستل عن عقيدته فأقر بالإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسوله عيسى عليه السلام . فأمر بسفك دمه فقتل . وكذلك بقية الشهداء اعترفوا بما اعترف به دون جبن ولا تهيب ، بل بشجاعة وصبر على ما يشاهدونه من أفانين العذاب وأخاديد النيران . ثم ألقوا امرأه بنفسها في النار وتبعها طفل لها في الخامسة من عمره . وكل هؤلاء الشهداء أظهروا من السرور بالتألم من أجله تعالى ، والفرح بالشهادة ، ما أضحووا مثلاً وعبرة لكل مفتون من أجل إيمانه ومدافعته عن يقينه . سواء افتتن بماله أو نفسه أو بسلب حق له . لا جرم أن من تلا ما ورد في الوعد الصادق لكل مفتون في الدين ، استبشر بما أعد للمخلصين الصابرين . وتسمى هذه القصة عند النصارى شهادة الحبر أرائنا ورفقته . ويؤرخونها بعام (٥٢٤) من التاريخ المسيحي ، وقد علمت أن في كلام مجاهد ومن قبله إشارة إليها . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ)

« إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ » أى بلوهم بالأذى ليرجموا عن إيمانهم . قال أبو السعود : والمراد بهم ، إما أصحاب الأخدود خاصة ، وبالمفتونين المطرودين في الأخدود ، وإما الذين بلوهم في ذلك بالأذية والتعذيب على الإطلاق . وهم داخلون في جلتهم دخولاً أولياً « ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا » أى عن كفرهم وفتنتهم « فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » أى عذابان منوعان على الكفر وعلى الفتنة . أو هما واحد . أو من عطف الخاص على العام للمبالغة فيه . لأن عذاب جهنم بالمزهرير والإحراق وغيرها . والأظهر أنهما واحد ، وإنه من عطف التفسير والتوضيح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى من هؤلاء المفتونين وغيرهم « لَهُمْ » أى فى شأنهم الأخرى « جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ « أى التام الذى لا فوز مثله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[١٣] (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ)

[١٤] (وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ)

[١٥] (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ)

[١٦] (فَعَمَلُكُمْ لَمَّا يُرِيدُ)

« إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » قال أبو السعود : استئناف خطب به النبى ﷺ ، إيذاً بأن لكفار قومه نصيباً موفوراً من مضمونه ، كما ينبى عنه التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام . و (البطش) الأخذ بعنف . وحيث وصف بالشدة فقد تضاعف وتقام . وهو بطشه بالجسارة والظلمة ، وأخذه إياهم بالعذاب والانتقام . كقوله تعالى (١) « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُى ظِلْمَةً إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » (١) « إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ » أى يبدى الخلق ثم يعيده . قال الإمام : وهو فى كل يوم

(١) [١١ / هود / ١٠٢] .

يبدى خلقاً من نبات وحيوان وغيرها . ثم إذا هلك أعاد الله خلقه مرة أخرى . ثم هو يعيد الناس في اليوم الآخر على النحو الذى يعلمه « وَهُوَ الْغَفُورُ » أى لمن يرجع إليه بالتوبة « أَلْوَدُودُ » أى المحب لمن أطاعه وأخلص له « ذُو الْعَرْشِ » أى الملك والسلطان أو السماء « أَلْمَجِيدُ » أى العظيم فى ذاته وصفاته . وقرئ بالجر صفة للعرش . ومجده : علوه وعظمته « فَعَالٌ لِّمَآ يُرِيدُ » أى لا يريد شيئاً إلا فعله . فلا يحول بينه وبين مراده شيء . ففتى أراد إهلاك الجاحدين ونصر المخلصين ، فعل ، لأن له ملك السموات والأرض . ولذا تأثره بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ)

[١٨] (فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ)

[١٩] (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ)

[٢٠] (وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ)

[٢١] (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ)

[٢٢] (فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ » أى الذين تجندوا على الرسل بأذاهم .

قال ابن جرير (١) : أى قد أتاك ذلك ، وعلمته ، فاصبر لأذى قومك إياك ، لما نالوك به من مكروه ، كما صبر الذين تجند هؤلاء الجنود عليهم من رسل . ولا يثنيتك عن تبليغهم رسالتى . كما لم يثن الذين أرسلوا إلى هؤلاء . فإن عاقبة من لم يصدقك ويؤمن بك منهم ، إلى عطب وهلاك . كالذى كان من هؤلاء الجنود ، فالجملة - كما قال أبو السموء - استئناف مقرر لشدة بطشه تعالى

(١) انظر الصفحة رقم ١٣٩ من الجزء الثلاثين (طبعة الحامى الثانية) .

بالظلمة العصاة ، والكفرة العتاة . وكونه (فعلا لما يريد) متضمن لتسليمته عليه الصلاة والسلام بالإشعار بأنه سيمصّب قومه ما أصاب الجنود .

وقوله تعالى « فِرْعَوْنٌ وَثَمُودٌ » بدل من (الجنود) لأن المراد بفرعون هو وقومه ، واكتفى بذكره عنهم لأنهم أتباعه . والمراد بحديثهم ما صدر عنهم من التمادى في الكفر والضلال ، وما حل بهم من العذاب والنكال .

« بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ » أى للحق والوحى ، مع وضوح آياته وظهور بيناته ، عنادا وبغيا . والإضراب انتقالا للأشد ، كأنه قيل ليس حال فرعون وثمود بأعجب من حال قومك . فإنهم ، مع علمهم بما حل بهم ، لم ينزجروا . وفى جماعهم (فى تَكْذِيبٍ) إشارة إلى تمكّنه من أنفسهم ، وأنه لشدة أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه أو البحر بالفريق فيه ، مع ما فى تنكيره من الدلالة على تعظيمه وتهويله .

« وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ » أى محص عليهم أعمالهم . لا يخفى عليه منها شيء وهو مجازيهم على جميعها . فاللفظ كناية عما ذكر . أو المراد وصف اقتداره عليهم ، وأنهم فى قبضته وحوزته ، كالحاط إذا أحيط به من ورائه ، فسدّ عليه مسلكه فلا يجد مهربا . ففيه استعارة تمثيلية .

قال الشهاب : وفيه تعريض توبيخى لهم بأنهم نبذوا الله وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الهوى والشهوات بوجوه انهما كهم ، وقوله تعالى « بَلِ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ » أى سام شريف لا يماثل فى أسلوبه وهدايته « فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ » قرئ بالرفع صفة (لقرآن) والجر صفة للوح . قال ابن جرير (١) : والمعنى على الأولى محفوظ من التغيير والتبديل فى لوح . وعلى الثانية محفوظ من الزيادة فيه والنقصان منه ، عما أثبتته الله فيه . و (بل) إضراب عن شدة تكذيبهم وعدم كفهم عنه ، إلى وصف القرآن بما ذكر ، للإشارة إلى أنه لا ريب فيه ولا يضره تكذيب هؤلاء . فإنه تعالى تولى حفظه وظهوره أبد الآبدين .

(١) انظر الصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .